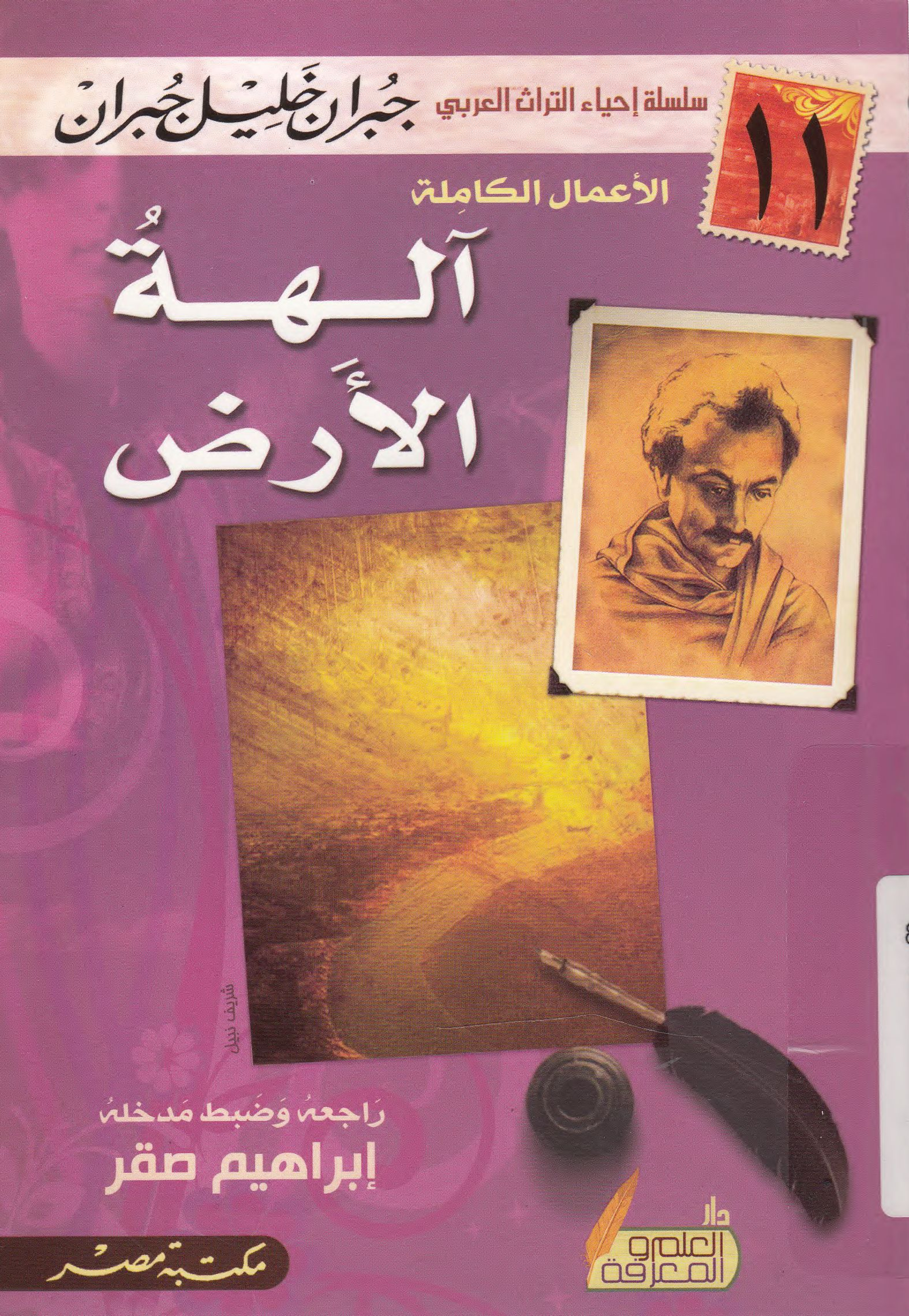

١١
سلسلة إحياء التراث العربي
جُبران خَليل جُبران
الأعمال الكامِلة
آلهــة
الأرض
شريف نبيل
رَاجعهُ وَضبط مَدخلهُ
إبراهيم صقر
دار العلم و المعرفة
مكتبة مصر

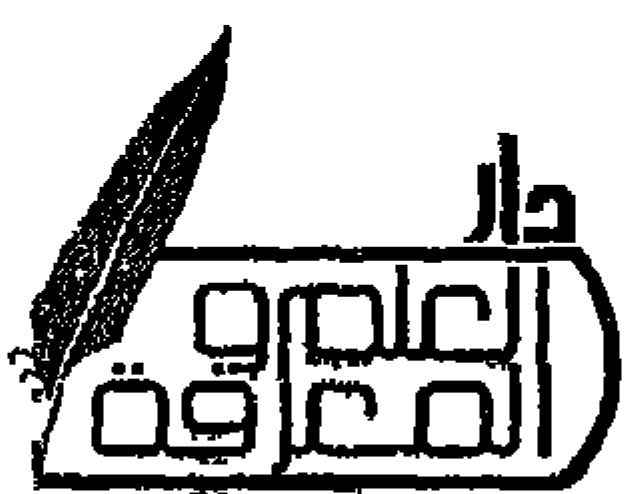
آلهـــة الأرض

اسم الكتاب :	آلهـــــة الأرض
تـــــأليف :	جبران خليل جبران
القطـــــع :	١٤ × ٢٠
عدد الصفحات :	٧٢ صفحة
سنة الطبـع :	١٤٣٢هـ / ٢٠١١م (طبعة جديدة منقحة)
الناشــــر :	دار العلم والمعرفة
طباعــــة :	دار مصر للطباعة - القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية - مصر
٢٠١٠/٢٢١٦٠
الترقيم الدولي: 977-11-1624-3

٢٠ ش عبد المنعم رياض - من ش حسني مبارك
زهراء مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١٢٢٨٨٨٩٣٠ - ٠١١٣٣٣١٢٣٨٠
E-mail : almmarfa@yahoo.com
almmarfa@gmail.com

عبلين - الجليل - فلسطين
جوال : ٠٥٢٣٠٧٧٣٣٤ (٠٠٩٧٢)
٠٥٢٨٥٠٢٨٢٦ (٠٠٩٧٢)
فاكس: ٠٤٩٥٠٢٤٧٢ (٠٠٩٧٢)



سلسلة إحياء التراث العربي

جبران خليل جبران

آلهة الأرض

تقديم

كرم الدكروري

راجعه وضبط مدخله

أ/ إبراهيم محمد صقر

الناشر

دار العلم والمعرفة

تقـــديم

رفَض المطارنْة الاشتراكَ في مراسِمِ استقبَالِ جُثمان جُبران خليل جبران، في عام ١٩٣١م لُيدفنَ -بِنَاء عَلَى وَصيّته- في بلدة بشرّي شَمال لُبنان. بَعد نَقل جُثمانه عَبْر البحرِ، مِن أمريكَا، لأَنّه «كَافرٌ وُمهرْطِق»، بِزَعم هُجُومه علَى الكهنة.

وقبلَها رَفضَ كاهنُ الكنيسةِ المارُونيّةِ في نيويورك أنْ يُعطيَ تصريحًا لِكَاهِن الكَنيسةِ المارُونيّة في بوسطن بالصَّلاة على جُثمانِ جُبران لأَنَّه -أي الكاهنُ- زَار جُبران في المُستشفى، «وعرفَ مِن الراهبةِ أنه رفضَ الاعتراف بأنّه كَاثوليكيّ».

خشِيت فَرنسا التي كَانت تُسيطرُ عَلى مقَاليدِ لُبنَان أنْ يَضعَها رِجالُ الدينِ المَسيحيّ في حَرَج بَالغ أَمَامَ العَالم بعَدَم الصّلاة عَلى جُثمان الفَيلسوفِ والأَديبِ، والرسَّام الذي بَهرَتْ كِتَاباتُه الغَربَ، واعتبرتْه جَريدةُ «النيُويورك هيرالد»:

«نَابِغة الملاَيينِ الذينَ يتكلَّمون العَربيَّة في الشَرق».

تدخّلَ سِكرتيرُ المطبُوعاتِ التَابعُ للمندوبِ الفَرنسيّ، بِمُساعدةِ

آخرينَ وشكّلوا وفْدًا وذَهبوا إلى مقرّ البَطريركِ المَارونيّ، إلياس الحُويك، لإقناعِه بِالعُدولِ عَن مُوقفِه، واستَعانَ أَحدُ المطَارنةِ بِكلماتٍ لجُبرانَ ليثبتَ بها صِحّة مَوقفِهم الرَّافِض له تقول:

«في لُبنان، ذلك الجبل الغنيّ بِنور الشمسِ، الفَقيرُ إلى نُور المعْرفَة، قد اتّحدَ الشَريفُ -يَقصِدُ الإقطاعيّ- والكَاهنُ على إِبَادةِ الفَلّاح المسكين، الذي يَأكلُ خبزَه بِعرق جَبينهِ، كيما يَحمِي جَسدَه مِن سَيفِ الأوّلِ، ويَحمِي روحَه مِن لعْنَة الثّانِي».

وتَابعَ المطَارنةُ: هَل يُعقلُ أن نُكرمَ ونستقبلَ مَن له هذا الرّأي في الكَهنة؟

فأجَابَ أحدُ أعْضَاءِ الوفد المُدافع عن جُبران:

«إنّ كُتبه تُقرأ في كَنائسِ أمرِيكا، فَهل يُعقل أن يكونَ كَافِرًا مَن يَقولُ مُخَاطبًا السيدَ المسِيحَ في كِتَابه «يسوع ابن الإنسان»:

«وأنتَ أيها الجبّارُ المصلوبُ، النَاظرُ مِن أَعَالي الجَلْجَلة إلى مُواكبِ الأَجيالِ، السَامعُ ضَجيجَ الأُممِ الفَاهمُ أَحلامَ الأَبديّةِ... أنتَ عَلى خَشَبة الصّليب المضرّجَة بِالدّمَاء، أَكثرُ جَلالاً ومهابةً مِن أَلْفِ مِلِك علىَ ألفِ عَرْش، في أَلْفِ مملكة... بلْ أنتَ بَين النزعِ

والموتِ، أشدُ هَؤلاءِ قوّةً وبَطشًا مِن أَلفِ قَائدٍ وأَلفِ جَيش، وألف معرَكة... أَنتَ بِكآبَتِك أَجملُ مِن الرّبِيع بِأزهَاره، بَلْ أنتَ بينَ الجَلّادِين أكثرُ حُريةً مِن نُورِ الشَمسِ.. إنّ إِكليلَ الشّوكِ عَلى رأَسِكَ، هوَ أجلّ وأجملُ مِن تَاج بهرام، والمسمارُ في كفّك أثمَنُ مِن صَولجان المشترَى، وقطراتُ الدّماءِ على قَدَميك أسْنى لمعانًا مِن قَلائِدِ عشتروت».

تَأثّر البَطريركُ وبَكى. وقَالَ آمرًا الكَهنة: «انْزلوا إلىَ بَيروت، واستقبلوا جُثمان جُبران، فهو أكثرُ تَدّينًا مِنّا».

استَقبلَ جُثمان جُبران نحو ١٦٠ كَاهِنًا في مَأتمٍ جَلَلٍ شَهدتْه كَاتِدرائيةِ القدّيس جِرجِس في بيروت.

فَشَلَ الثّرى في أنْ يقبُرَ «عواصفَ» جُبران، وعاشتْ فَلسفتُه لتَثِيرَ غَضبَ مُعظمِ رِجَالِ الدّين -مَسيحيين ومُسلمين- وحَناجرَ المُتشدّدين وسخَطَ المقلّدِين ممّن صَدَأتْ أَروَاحُهم وأُغلقتْ عُقولُهم. وسَيظلُّ جُبران نَاقوسًا مُزعِجًا مَا بقيَ الشَرقُ جَسدًا تَنهشُه عِلَلُ البَلاَدة، وأهلُه يتلذّذُون ركوعهم مِن المهْد إلىَ اللّحدِ أمَامَ طَواغِيتِهم ومَا أَلفَوْا عَليه آباءَهم، دُونَ أنْ يَتَأملُوا الحَياةَ ويُعِيدوا مَعرفةَ أَنّفسِهم بِوعْيٍ وَفكْر طَلِيق.

جُبران خليل جبران

١٨٨٣م-١٩٣١م

حياتُه وآثارُه

مولده.. نشأته.. سفره

وُلد جُبران في بَلدة بشرّي المتّكئةِ عَلى كَتِف وَادي قاديشا، في ظِلالِ الأَرْز حَيثُ تَتَفجرُ الأَرضُ مَاءً وخُضرةً وزهرًا، والثُلوجُ تعمّم الجِبالَ مُعظمَ فُصولِ السنة، وكَانت وِلادتُه صَباحَ السَادسِ مِن كَانُون الثاني (يناير) سنة ١٨٨٣م، في كَنَفِ عائلةٍ قليلةِ الموارِدِ مؤلّفة مِن الأب خليل، والأم كامِلة رحمة التي كَان لهَا مِن زَواج سَابقٍ ولدٌ اسمُه بُطرس، ورُزقت مِن زَواجها مِن خليل جُبران ثلاثةَ أَولاَد: جُبران أكبرهُم، وأُختَاه مَرْيانَا وسُلطَانة.

في الخَامسةِ مِن عُمره تَلَقّى مَبادئَ العَربيّةِ والفَرنسيّة والسِّريانيّة في مَدرسةِ أليشاع «تحت السّنديانَة» وتعرّفَ عَلى النَهضةِ الإيطاليةِ مِن جَرّاء تردّده علَى مَركزٍ للرُّهبَان الإيطَاليين.

أُصيبَ والده بِنكسة ورَاحَ ضَحيةَ تُهمة أودَت بِه إلَى السّجن، فَلملَمت كَامِلة رحمة نفسَها وسَافَرت مَع أولادها الأربعة: بُطرس، وجُبران، ومريانا وسلطانة إلى أمريكا، سنة ١٨٩٤م.

في بوسطن:

استقرتِ العَائلةُ في الحيّ الصينيّ مِن مَدينةِ بُوسطُن، حَيثَ دَخلَ جُبران مَدرسةً شَعبيةً تَعلّم فِيها أصولَ اللغةِ الإنجليزيّة، وكَانَ له، بِفضلِ مُعلّمته الأمريكية، لِقاء مَع «فريد هولاند» الذي ساعدَه عَلَى دِراسةِ تِقنيةِ الرسْمِ ومكّنه مِنْ مُواصَلة تَعلّم الإنجليزية.

وبَعد ثَلاث سَنوات مِن العَملِ والكَدّ، استَطاع أَفرادُ أسرتِه أن يَجمعُوا مِقدارًا مِنَ المَال مَكّنهم مِن إرسَال جُبران إلى بَيروتَ ليدرُسَ اللغَةَ العَربيةَ والفَرنسيّة، لأنهم تَوسّموا فِيهِ الرجلَ النَابغةَ الذي سَيكون له مُستقبلٌ بَاهر، ومكانةٌ سامِقة، في عَالم الفِكر.

بيروت: مدرسة الحكمة:

في بَيروتَ التحَقَ بِمدرسة «الحِكمة» وطُوال ثَلاثة أعَوام اسْتَطاعَ أن يُوسّعَ مَعرفتَه باللّغة العَربيّة، وتتفتَحَ له، بفضلِها، آفاقٌ جَديدة، وكانَ له رُفقاءُ وطّد معرفتَه بهم، ومِنهم النحّات يوسُف الحويك الذي سيكونُ لَهُ شَأنٌ كَبير في حيَاة جُبران. وكَان مُعلّمه في اللُغَة العَربيّة الخوري يوسُف الحدّاد الذي استَقَى جُبران مِنهُ اللُغَةَ مِن مُورِدهَا العَذْب، فَأجادَهَا وأَبْدعَ فِيهَا.

العودة إلى بوسطن: تجربة الموت:

وفي عام ١٨٩٩م، عامَ عَودته إلى بُوسطن بَدأَ في مُزاوَلـةِ الرّسْـم والكتَابةِ، لَكنّ الفَواجِعَ العَائِلية تَوّالت عَليهِ فَأوقَفتهُ مُرغَمًا أمَام تَجْرُبة الموتِ، وذَلك عِندَما مَاتت أُختُه الصُغْرَى سُلطَانة بِمرض السّل عَام ١٩٠٢م، ولِحِقَ بها أخوه بُطرس، ثُمَّ أمّه، في السنةِ التَاليـة، وبِـالَمرض عينهِ، فَاستوْلى الحُزنُ واليَأسُ عَليه، وَعبّر عَن ضَراوة أَلمـه بِقولـه بَعـد مَوتِ أمّه: «فَقدتُ يَنبوعَ الحُنوّ والرَأفَةِ والغُفْرَانِ والصّدرَ الذي أَسندُ إليه رَأسي، واليَد التي تُبَارِكني وتحرُسني».

إلاّ أنّ هَذهِ الفَواجِعَ لم تهدّ عَزيمَةَ جُبران، بـلْ وجـدَ فِيهَـا حَـافزًا للانطِلاقِ مِن جَديدٍ في عَـالمِ الفَـنّ، واستطَاع سَنة ١٩٠٤م أنْ يُقيمَ مَعرِضًا لرسُومه الرّمزيّة، تَعرّفَ خِلاله إلَى سَيدةٍ أمريكية تُدعىَ «ماري هاسكل»، وعَلَى جَانب مِنَ الثّراء، فَقـد أُعجِبـتْ بِرسـومِه وأَظهـرتْ إِعجابهَا بها، ودَعتْه إلى عرْضِها في المدرسةِ التِي كَانت تديرُها.

وقدْ كَان لماري هَاسكل هَـذهِ دَورُهَـا الحَاسـمُ في تَوجِيهـه الأَدبيّ والفَنيّ. فَقدْ مَنحت الفَنانَ النَاشئَ رِعَايتَها ومُسَاعدتَها فأكـبّ يَرسُـم ويكتُب، وَينطلِق، وبِالتَالي، في عَـالم الـشُهرة، وشِـعارهُ: «لا أريـدُ أن أكتُبَ اسمي بِماء عَلَى سِفْر الوجود، بَل بِأحرفٍ مِن نَار».

وفي العَام نفسه، ١٩٠٤م التَقَى جُبران أمين الغريب صَاحبَ جَريدة «المُهاجَر» فأُعجِبَ هَذا الأَخيرُ إِعجَابًا شَديدًا بِخَواطرِ جُبران ورُسُومِه. وعَرضَ أن يَنشرهَا في جَريدَته، وفي آذار (مارس) مِنَ السّنَةِ نَفسِها ظَهرَ أولُ مَقَال لجُبران عِنوانُه: «رُؤيَا» وكَان لَهُ صَدَاهُ الواسِعُ والعَمِيقُ والبَليغُ لَدَى القُراءِ مِنْ حَيثُ طَرَافَةِ النّهج والإِبدَاعِ في الخَيَالِ.

هَذهِ الانطلاَقةُ شَجَعتْه عَلَى أنْ يَجمعَ مَا كَانَ ينشُره في الصّحف مِن مقَالاتٍ وأقَاصِيصَ في ثَلاثةِ كُتُبٍ نَشَرَها عَلَى التوَالي خِلالَ أَربَع سَنوات وَهيَ: المُوسيقى (١٩٠٥م)، وعَرائِس المُرُوج (١٩٠٦م)، والأَروَاح المُتمَردَة (١٩٠٨م).

باريس: تجربة فنية لامعة:

وكانَ جُبران أبدَى لماري هاسكل رَغبَتَه في تَعلُّم أصولِ الرّسم في بَاريسَ، فَلم تَقفْ ماري حَائِلاً دُونَ تحقيقِ رَغبتهِ، إذْ لم تَكُن تَضِنَّ عَليهِ بالمُسَاعَدة الماديّة. كمَا لم تكُن تَضِنّ عَليهِ بِحنَانِها، فلّبت رغبته وأرسَلتهُ إلى باريس عام ١٩٠٨م.

وفي باريسَ أقَامَ سَنتين يختلفُ إلى مَدرسَة «الفنُون الجَميلة» ويَتلقى دُروسَ «أكَادِيمية جُوليَان» التي لم يَطُلْ بِه الوَقتُ حَتى تَركَها

لِيمَارِسَ الرسّمَ الحُرَّ في مُحترف اسْتَأجرَه هُو وصَدِيقُه النّحَات يُوسف الحويك. وكَانت هَذهِ المَرحَلةُ مِنْ حَيَاتِه محطّةً بَارِزة فَتحتْ لَهُ آفَاقًا جَديدة. ولم يَنسَ «لُبنانه» فظلَّ يحِنّ إليهِ ويَتَذكّره شَمسًا طَالِعةً مِن وَرَاءِ صَنين، أو جَانِحةً إلى الغُروب. وطلولاً وأودية يَنسَاب مِنها السّحْر انسِيابَ العِطر مِن الزهْر الفوّاح. أمَا الكسْبُ الرَفيعُ الذي نَالهُ في بَاريس والذي ملأهُ عزّة وفَخرًا. وهُوَ أنَّ الجَمعية الوطنية للفِنون الجَميلة، في بَاريس، اختَارت إحدَى لَوْحَاته مِنْ بَين تِلكَ التي عَرضَها في المَعرِض الذي أقَامته. فَلا تَسلْ، إذ ذَاك، عَن نَشوة الفَنانِ التي تَفُوق كُلّ وَصْف.

إلى بوسطن فنيويورك:

عَام ١٩١٠م عَادَ إلىَ بُوسطن، وانتقلَ عَام ١٩١١م إلى نيويورك بِإلحَاح مِن أَمِين الريحانيّ الذي التقَاهُ في بَاريس، فَاستَأجرَ غُرفةً في غرينتش، حَيّ الفَنَانِين في تِلكَ المَدينَة، ونشر في السنة ١٩١٢م «الأجنحة المتكسرة» وهِيَ قصّة جَمع جُبران بَينَ دِفتَيها أصْدَاءَ خَفقَاتِ قَلبِه حَتى تعرّف، أثنَاء إقَامَته بَينَ بيرون وبشرّي إلى حلا الضاهر، وأَهْدَى هَذَا الكِتابَ عَربونَ وَفاءٍ إلى ماري هاسكل «التي تحدّقُ بِالشمسِ بِأجفَانٍ جَامدة، وتَقبضُ عَلَى النَّار بِأصابعَ غَيرِ مُرتَعشة،

وتَسمعُ نَغمةَ الرُوح الكلّي مِن ورَاء ضَجِيج العُميان وصُرَاخِهم».

في سَنة ١٩١٤م جَمعَ في كِتَاب أسماه «دمعة وابتسامة» مَقَالاتٍ كَانَ قَد نَشرَها في بَعض المجلّات والصّحُف. وفي الآنَ نَفْسه، كَانت ماري هاسكل تُشّجِعُه وتَدْفَعُه عَلَى الكِتَابةِ باللغَة الإنجليزية؛ فَأصدَر «المَجْنُون» سنة ١٩١٨م، و«السَابِق» سنة ١٩٢٠م.

وفي اللُّغَة العَربيّة صَدَرَ لَهُ «الموكب» سنة ١٩١٩م، و«العَوَاصِف» سنة ١٩٢٠م، و«البَدَائِع والطَرَائِف» عام ١٩٢٣م.

إبّانَ الحَرب العَالميةِ الأَولىَ، حَلّت الكَارِثة بِلُبنَان فَجوّعت أبنَاءَه وشرّدَتهم وقَضْت عَلَى الآلافِ منهم، فَتنغّص عَيشُ جُبران، وعبّر في سِلسِلةٍ مِنَ المقَالاتِ التي نَشَرهَا، عَن هَوْل الفَاجِعةِ وأثرِهَا في نَفسِهِ، ولم يَكتفِ بالكتابةِ بَلْ سَاهَم مَعَ بَعض إخْوَانِه الأُدبَاءِ في إنْشَاء لجنَة إغَاثةِ المَنْكُوبينَ التي استَطَاعت أنْ تُخفّف -بَعضِ الشَيءِ- مِن وَطأة المأسَاةِ عَلَى اللُبنَانِيين.

تأسيس الرابطة القلمية:

في هَذِهِ المرحَلة توَطّدت عِلاقَاتُ جُبران بِكَثيرٍ مِنَ الأُدَباءِ اللُبنَانِيين والسُورِيين فِي المهاجَر، فعَقدُوا الاجتماعَاتِ الكَثِيرةَ وقَرّروا

إِنشَاءِ جَمعيةٍ تَنهضُ بِالأدب العَربيّ الرَاكدِ إلىَ المُستَوى العَـالميّ. وبَعـدَ أَنْ وَضـعت الحَـربُ أَوْزَارَهَـا، اسّـتَمرت الاتـصالاتُ بَـينَ هـؤلاءِ الأُدبَاء، التي انْتَهت بِتَأسِيس «الرَابِطَـة القَلَميّـة» التـي كَـانَ شِـعَارُهَا انِتِشَال الأَدَب العَربيّ «مِنْ وَهدَة الخُمُول والتَقلِيـدَ إلىَ حَيثُ يُـصبِحُ قُوةً فَعَّالة فِي حَياةِ الأمّة».

تَأسَـسَت الرَابِطَـةُ سـنة ١٩٢٠م بِرئَاسَـةِ جُـبران، وكَـانَ سَـائرُ أَعضَائها المؤسّسِين: ميخائيل نعيمه، نسيب عريضة، رشـيد أيـوب، ندرة حداد، وليم كستفليس، إيليّا أبو ماضي، ورشيد الباحوط.

غَيرَ أنّ اهتمامَهُ بِأمُور «الرابطـةِ القَلميّـة» لم يَـصْرفْه عَـن الاهـتِمامِ بِنتَاجـهِ الشَخـصيّ فَأصـدَر سـنة ١٩٢٣م رَائِعتـه «النَبـيّ» بِاللغَـة الإنجلِيزية. قَالَ عَنهُ: «إنّه دِيَانتِي وأقدسُ قُدسيّاتِ حَيَاتي». وقال عنه لماري هاسكل فِي إحدَى رَسَائِله: «أُريدُ أنْ أَحيَـا الحَقِيقَـةَ. بَـدَلاً عَـن الكِتَابةِ عَن النَّار. أفضّلُ أنْ أكُونَ جَمْرةً تَتَأجّج، أُرِيدُ أَنْ أَكُـونَ مُعَلـمًا. وبِمَا أنيّ مُستَوحَد أُرِيدُ التَحَدُّث إلىَ جَميع المستوحدين».

مرضه وموته:

ومَعَ أنّ المرضَ لازَمَهُ كَطِيفٍ فَقَـضّ عَليـهِ مَـضجَعَه، إلاّ أنّـه مَـا

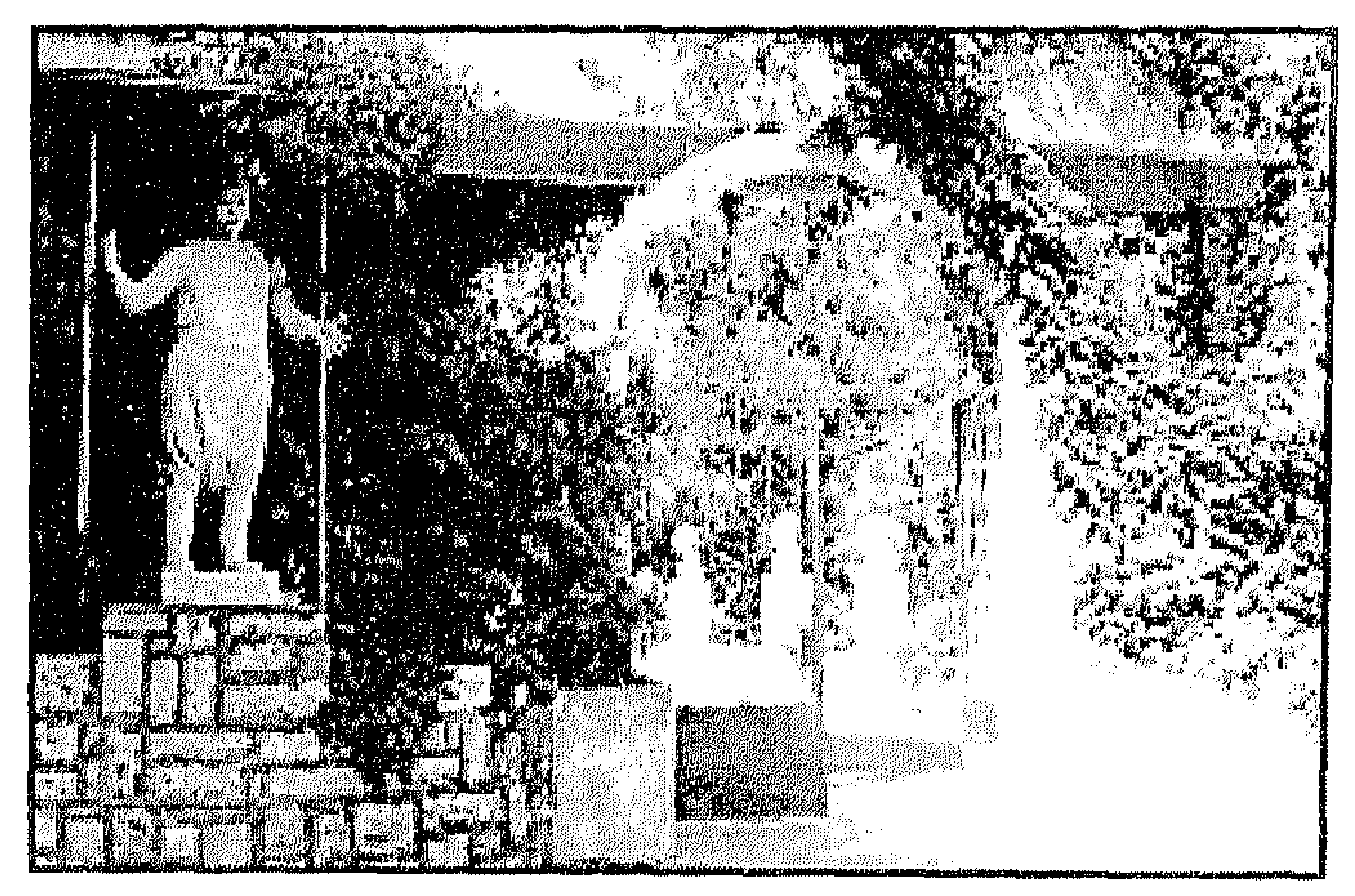
استَسلمَ لمشِيئةِ القَدَر، فَلم يَنْقَطِعْ يومًا عَن الرّسْم والكِتابةِ، واستَطَاعَ أنْ يُصدِر عَلَى التَوالي في اللُّغَة الإنجليزية: رَمل وزَبَد (١٩٢٦م)، يسوع ابن الإنسان (١٩٢٨م)، آلهة الأرض (١٩٣١م سنة وَفَاته) وصَدَر «التَائِه» سنة ١٩٣٢م، أي بَعدَ وَفَاتِه بِسَنةٍ وَاحِدة. و«حَدِيقَة النَبيّ» سنة ١٩٣٣م.

لكنّ طَاقةَ جِسْمَه اسْتَنفَذَهَا جُبران في عَمَلِه المُرهَق، فَلفَظَ أَنْفَاسَه الأَخِيرة في ١٠ من نيسان (أبريل) سنة ١٩٣١م، ونُقل جُثمانُه صَيفَ ذَلِكَ العَام إلىَ مَسقَط رَأسَه بشرّي، بِنَاءً عَلىَ وَصيّته. وكَانت رَقدَتُه الأَخِيرةُ في صَوّمَعةِ دِير مَار سَركِيس المُطّلةِ عَلَى الوادي المُقدّس.

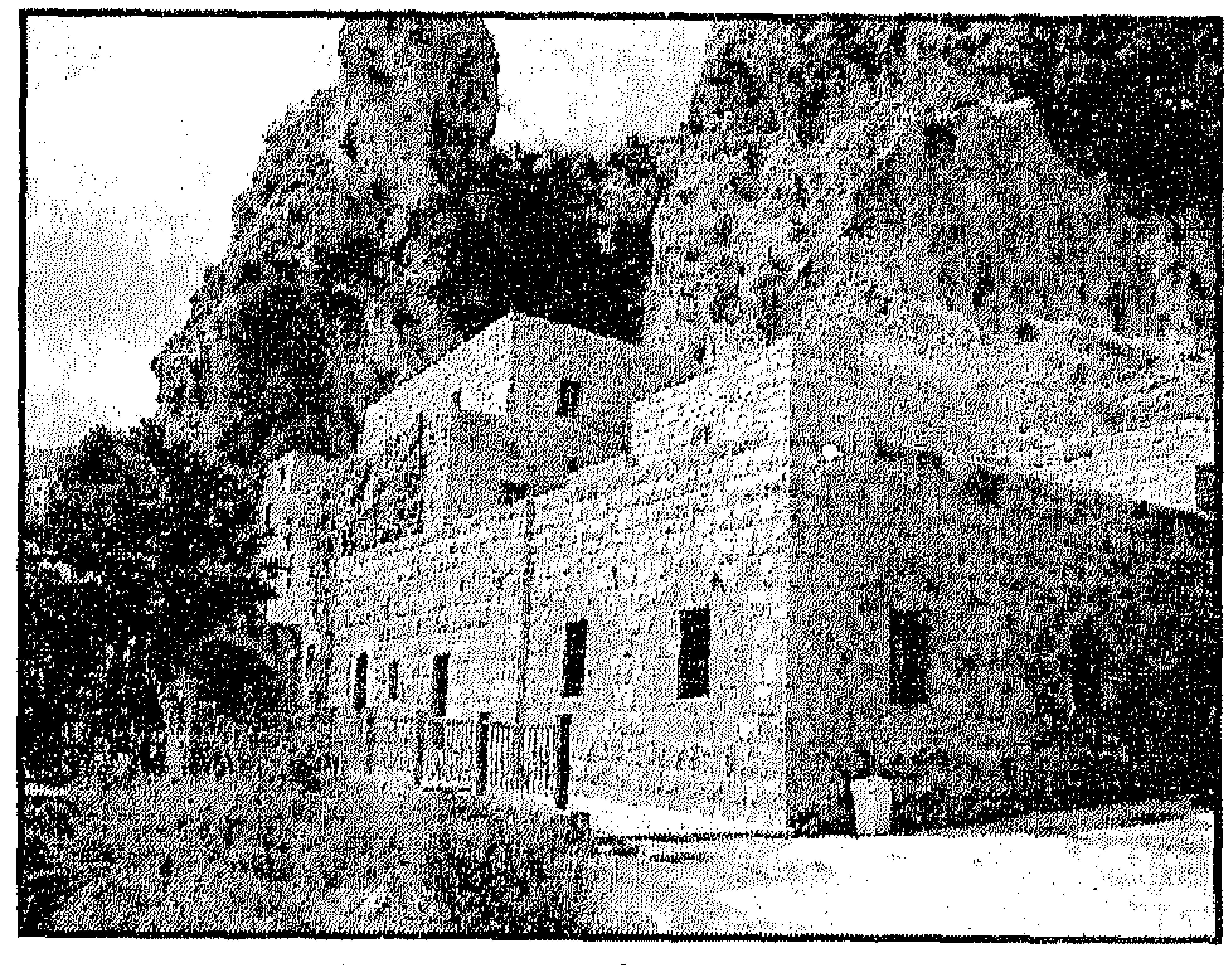
□□□



جبران في مدرسة الحكمة – بيروت



منزل جبران في بشري



قبر جبران ومتحفه في غابة مارسركيس

آلهـــة الأرض

في آلهة الأرض:

حوار –طويل نوعًا– بين إلهين: الأول متشائم ناقم يرى أن الإنسان خبز الآلهة، والثاني يردّ عليه سعيدًا متفائلاً...

ومعهما كان إله ثاث يحاول أن يوجه إلى السرور والحبور، وكان يتكلم عند الضرورة موجهًا ومرشدًا وناصحًا أن يعيش الإنسان كما ينبغي... لأنه ابن الأرض.

وقد يتقلب الإله الثاني –الذي يتحدّث بلسان جبران– إلى إله بعيد عن التفاؤل لا لشيء إلاَّ ليرد على لمحة من لمحات الإله الثالث...

وتتعدّد الآله، فيكون إله رابع تكون مهمته طمس شخصيات الآلهة الثلاثة. ويشخّص بحسب خياله الأرض والشمس.

وحوار آلهة الأرض مفعم بالخيال المجنح، وهي سمة الرومانسيين من الأدباء والشعراء، نقلوها عن الغرب مع مطالع القرن العشرين.

ينقل جبران تجربته التي عانى فيها من القهْر والظلـم، لكـن عـلى لسان هؤلاء الآلهة، أحدها ساخط، والثـاني أصـابته عـدوى الخنـوع واليـأس، والإلـه الثالـث المزعـوم يحـاول أن يـصل بهـما إلى المحبـة والتسامح والرضا.

الإله الثالث المزعوم يحـاول أن يـصل بهـما إلى المحبـة والتـسامح والرضا.

الإله الثالث يحاول أن يبرز حقائق، ولكنّ الآخرين غير متقّبلَـيْن ما يلقى زميلهما من حُجج ودلائل على صحة وفائدة مـا يرمـي إليـه، فهما كما اتضح له نائمان لا يتطلعان إلى مجد، بل يحـسدان ذوي المجـد، وهما حقًا تَعِبَان من أثقال ذاتهما.

كما حذّر هذا الإله الثالث من سـطوة المـرأة وتأثيرهـا وسـلطانها وإغرائها.

والإله الثالث ينشد الطريق إلى المحبة بين الجميع... ويرى الجمال في الكون منتشرًا بل مبعثرًا لا يجد من يصبو إليه، إلا مـن يحـرّر نفـسه من قيود المكان والزمان.

ويرى أن الصراع بين الرغبة والذات مستمر لا ينقطع.

ولعل جبران يقصد آلهة الأرض...

***

جبران خليل جبران

آلهة الأرض

عرّبه

الأرشمندريت أنطونيوس بشير



آلهــة الأرض

أنتَ وعِندمَا حملت آلِيـَّة العصرِ الثاني عشر، وابتلع الـصمتُ، الـذي هو مدّ بحرِ الليلِ، جميعَ التِلال ظهر الآلهةُ المولـدون في الأرض، وأسـيادة الحياة، على الجبال.

فتراكضت الأنهارُ إلى أقدامِهم.

وغمرت أمواجُ الضباب صدورَهم.

وارتفعت رءوْسُهم بجلال فوق العمّال.

ثم تكلموا، فتوجهتْ أصواتُهم كالرعد البعيدِ، فوقَ السهول.

الإله الأول:

إنّ الريحَ تهُبّ شرقًا،

فأريدُ أنْ أحوّلَ وجهي نحوَ الجنوب،

لأنَّ الريحَ تملأ مشائِي برائحة الأشياءِ الميتة.

الإله الثاني:

هذه رائحةُ الأجسامِ، وهي لذيذةٌ وسخيّة.

وأنا أودّ أنْ أتنشّقها.

الإله الأول:

هي رائحة الميت المَحترقةِ على لهيبها الضّئيل.

وهي تملا دقائقَ على الوهادِ بوفْرة.

فتزعج حواسّي كما يزعجها الهواء الفاسد في الهاوية.

ولذلك أريدُ أنْ أحوّل وجهي إلى الشمال الذي لا رائحةَ فيه.

الإله الثاني:

إنها العبيرُ للحياة المثمرة.

وهي ما أودّ أنْ أتنشّقه الآنَ وفي كلّ أوانٍ.

إنما تعيشُ الآلهةُ على التضحيةِ.

وتبردُ غلّة عطشِها بالدّم.

وتسكنُ قلوبُها بالنفوس الفتيّة،

وتُشدّ عزائمَها بالتأوهات الدائمةِ التي تصعّدها أرواحُ القاطنينِ في قلبِ الموت، وعروشُها مبنيّة على رمادِ الأجيالِ.

الإله الأول:

قد سئمتُ رحيلَ كلِّ ما هو كائن.

فأنا لم أمدّ يدًا لأخلقَ عالمًا،

ولا لأمحوَ عالمًا من الوجود.

إنني ما كنتُ لأعيشُ لو أنني قادر أنْ أموت،

لأن ثقلَ الأعصُر كلِّها على كتِفي.

وهدير البحرِ الذي لا ينقطعُ يستنفدُ كنوزَ نومي.

فيا ليْتَ لي أنْ أخسرَ المطلبَ الأول.

أودّ لو أستطيعُ أن أجرّد ألوهيّتي من غايتها،

لأنفخَ أنفاسِي ميتوتتي في الفضاء،

فلا أكونُ فيها بعد.

يا ليتَ لي أنْ أحترقَ وأمضيَ من ذاكرة الزمانِ إلى فراغ الأزمانِ!

الإله الثالث:

أصغِيا يا أخويّ، أصغِيا أيها الشقيقانِ القديمانِ؛

فإنّ شابًّا في ذلك الوادي،

يُنشدُ مكنوناتِ قلبِه في أذن الليلِ.

إنّ قيثارتَه من الذهب والأبنوسِ،

وصوته من الفِضّة والذّهب.

الإله الثاني:

إنني لستُ مغرورًا بهذا المقدارِ لأتمنّى أن لا أكون.

فأنا لا أقدرُ أنْ أختارَ إلا أصعبَ الطّرق،

لأتتبّعَ الفصولَ، وأخضدَ شوكةَ السنين،

لأزرَع البذورَ وأراقبَها تنفذُ إلى قلب الأرضِ،

لأدعو الزهرةَ من مخبئها، وأسلّحها بقوّة لتحضُنَ حياتَها، ثم أعودُ فأقلعها عندما تضحكُ العاصفةُ في الغابة، لأُنهِضَ الإنسانَ من الظّلمةِ السرمدّيةِ.

ولكنني أحفظُ لجذوره حنينهَا إلى الأرض،

لأغرسَ فيه العطشَ للحياة، واجعلَ الموت حاملَ أقداحِه.

لأعطيَه المحبّة الناميةَ بالألمِ، المتساميةِ بالشّوق، المتزايدةَ بـالحنينِ، والمضمحلةَ بالعناق الأول،

لأُمنطقَ لياليهِ بأحلامِ الأيامِ العُلوّية،

وأسكبَ في أيّامه رؤى الليالي المقدّسةِ.

ثم أحكمَ على أيامِه ولياليه بالمماثلةِ التي لا تتغيّر،

لأجعلَ خيالَه كالنَّسْر على الجبل،

وأفكارَه كعواصفِ البِحار.

ثم أعطيه يدًا بطيئةً في الحكم،

وقدمًا ثقيلةً في التأمُّل،

لأمنحَه مسّرةً ليترنَّمَ أمامنا، وكآبةً ليلتجئَ إلينا.

ثم أجعلَه وضيعًا عندما تصرخُ الأرضُ في مجاعتِها طالبةً طعامًا،

لأرفع نفسَه عاليًا فوق الجليد،

ليصير قادرًا على مذاقه غدُنا.

وأحفظ جسَدَه يتمرغُ بالحمْأة،

لكي لا يتناسى ذكر أمسِه.

هكذا يليقْ بنا أن نحكمَ الإنسانَ إلى منتهى الزمان،

مُقيِّدين النَّسمة التي تبدأ بصراخ أُمّه،

وتنتهي بنُواح أولادِه.

الإله الأول:

إنّ قلبي يحترقُ عطشًا، بيْد أنني لا أريدُ أن أشرَب دمًا ضعيفًا لجنسٍ ضعيفٍ.

لأنّ الكأسَ مُلطَخةٌ، والعصيرَ الذي فيها مُرّ المذاقِ في فمي.

وأنا مثلُك قد عجنتُ الطينَ وصنعتُ منه أشكالاً متنفِّسةً لم تلبثْ أن سقطتْ من بينِ أصابعي إلى الآجام والتّلالِ.

وأنا مثلُك قد أنرتُ الأعماقَ المظلمةَ لبداءةِ الحياةِ،

وراقبتها تزحفُ من الكهوف إلى الأعالي الصّخريّة.

أنا مثلُك قد أحضرتُ الربيعَ ووضعتُ جمالَه،

ليكونَ غوايةً تقبض على الشباب، وترغمَه على الإنتاج والتكاثُر.

أنا مثلُك قد سرتُ بالإنسان من مَزار إلى مَزار.

وحوّلْت مخاوفَه الصّماءَ من غيرِ المنظوراتِ إلى إيمانٍ مضطربٍ بنا من غير أن يرانا أو يعرِفَنا.

أنا مثلُك قد جعلتُ العاصفةَ الهوجاءَ على رأسِه لينحنيَ أمامنَا.

وزعزتُ الأرضَ تحت قدميْهِ حتى يصرخُ إلينا.

ومثلُك أثرت الأوقيانوسَ البربريّ فطغى على عُشّ جزيرتِه،

حتى ماتَ في توسُّلهِ إلينا.

كل هذا فعلتُه، وأكثرَ منه.

وكلّ ما فعلته فارغٌ باطلٌ.

باطلةٌ هي اليقظةُ، وفارغٌ هو النوْمُ.

وثلاثَ مراتٍ: باطلٌ وفارغٌ هو الحلم.

الإله الثالث:

يا أخويّ، إنّ في غابة الريحانِ تلكَ فتاةٌ ترقصُ للقمر،

وفي شعرها ألفُ نجمةٍ من النّدى،

وحولَ قدمْيها ألفُ جَناح.

الإله الثاني:

إننا قد غرسْنا الإنسانَ، كرمتنا.

وفلحْنا الأرضَ من الضبابِ الأرجوانيّ للفجرِ الأولِ،

وراقبنا الأغصانَ النحيلةَناميةً،

وغذّينا الأوراقَ الفتيةَ علـى مـرِّ الأيـامِ والـسنين التـي لم تعـرفِ الفصولَ،

وحصّنّا البراعمَ ضدّ العناصرِ الغضوب،

وحرسْنا الزهرةَ من اعتداءِ الأرواحِ المظلمةِ.

والآن، وقد أخرجتْ من كرْمتنا عنبَها،

فأنتم لا تحمِلونهُ إلى المعصرة لتملأوا الأقداحَ.

فأية أيدٍ أقدرُ مِن أيديكم ستجمعُ الثمرَ؟

وأي مَطْلبٍ أنبلُ مِن عطشِكم ينتظرُ الخمرة؟

فالإنسانُ طعامٌ للآلهة.

ومجدُ الإنسانِ يبتدئُ عندما تمتصّ شفاهُ الآلهةِ المقدسةِ نسمتَه الهائمةَ على غير هُدًى.

كلّ ما هو بَشَرِيّ لا قيمةَ له إذا ظلّ بشريًا.

إن طهارَ الأطفالِ، ووجْدَ الشبابِ اللذيذِ،

وزهو الرجولةُ العزوم، وحكمةُ الشيخوخةِ الناضجةِ،

إنّ مجدَ الملوكِ، ونصرَ المحاربين، وشهوةَ الشعراء، وشرفُ الحاكمين والقديسين...

كلّ هذه، وكلّ ما تحملهُ في ثناياها، هو خبزُ الآلهة.

وهي لن تكونَ إلا خبزًا بغير بركةٍ إذا لم ترفعْها الآلهة إلى أفواهِها.

وكما أنَ حبّةَ الحِنطة الصّماء تتحولُ إلى أنشودةِ محبةٍ عندما يبتلِعُها البُلبل،

هكذا الإنسانُ إذا كان خبزًا للآلهة يتذوقُ الألوهية.

الإله الأول:

نعم، إنّ الإنسانَ هو خبزُ الآلهة!



وكل ما هو من الإنسان سيأتي إلى مائدة الآلهةِ الخالدةِ!

آلام الحَمْل، وعذاب الولادة،

صراخ الأطفالِ الذي يشُقّ كبدِ الليل.

وغم المرأةِ وهي تصارعُ النومَ الذي تتوقُ إليه لتسكبَ الحياةَ الذاويةَ من ثدييها.

الأنفاسُ الملتهبةُ الخارجةُ من صدور الشبابِ المتقطّعةِ، والعبراتُ المثقلةُ بأحمال الأهواءِ التي لم تفتحْ خزائِنَها بعد.

حِباهُ الرّجولةِ القاطرةِ عَرَقًا وهي تحرثُ الأرضَ الجدباءَ، وتحسراتِ الشيخوخةِ الذابلة عندما تدعو الحياة -ضدّ إرادةِ الحياةِ- إلى القبر.

تأمّلوا، هذا هو الإنسان!

مخلوقٌ يلِدُه الجوعُ فيصيرُ طعامًا للآلهة الجائعة،

وكرْمة تدبّ في تراب الأرضِ تحتَ أقدامِ الموتِ الذي لا يموت.

زهرةٌ تُزهرُ في ليالي الأشباحِ الشريرةِ،

وعنبٌ لا ينضجُ إلا في أيّام الدموعِ والرعبِ والعار.

وأنتم على رغم هذا كلِّه تطلبون إليّ أن آكلَ وأشربَ،

وترغبون إليّ أن أجلس بين الوجوهِ المكفّنة،

وأستقي حياتي مِن الشفاهِ الصّخريّةِ،

وأقتبل خلودي من الأيدي اليابسةِ!

الإله الثالث:

يا أخَويَّ، أيها الأخوانِ الرّاعبانِ،

إنّ الشابَ يغنّي في أعماقِ الوادي،

ولكنّ أنشودتَه تتصاعدُ إلى أعالي الجبالِ

وهو يهُزّ الغابةَ بصوتهِ، ويشقّ كبدِ السماء،

ويبدّدُ أحلامَ الأرض.

الإله الثاني:

(يصمّ أذنيه دائمًا)

إنّ النحلةَ تطنّ فغلاظة في أُذنيك،

والعسلُ مُرّ المذاقِ في فمِك.

إنني أودّ أن أُعزِّيك،

ولكنْ أنّى السبيلُ إلى ذلك؟

فليس يُصغِي غيرُ الهاوية عندما تخاطبُ الآلهةُ الآلهةَ،

لأنّ الهوّةَ الفاصلةَ بين الآلهةِ لا تُحدُّ ولا تُقاس،

والفضاءَ صامتٌ لا ريحَ فيه.

ومع كلّ هذا أريدُ أن أُعزِّيك،

أريدُ أن أجعلَ دائرتكَ المتلبدَة بالغيومِ نقيةً صافيةً.

ومع أننا متساويانِ بالقوةِ والفهمِ،

فإنني أريدُ أن أُخْلِصَ لك النصحَ.

عندما خرجتِ الأرضُ من الفضاء، ورأينا نحن -أبناءَ البدْء- أحدَنا الآخرَ في النور الذي لا عيْبَ فيه، حينئذٍ أصعْدنا الصوتَ الخفيَّ، المرتعشَ، الأولَ الذي أنعشَ مجاري الهواءِ والماء.

ثم مشِيْنا، جنبًا إلى جنب، على سَطح العالم الفتيّ الشيخ، ومِن صدَى خُطواتِنا البطيئةِ وَلد الزمانُ إلهًا رابعًا، فاقتفى آثار خطواتنا، وأظلم بخياله أفكارنا ورغباتنا، ولم يرَ إلا بنور عيوننا.

ثم جاءتِ الحياةُ إلى الأرض، وجاءتِ الرُّوح إلى الحياة، وكانتِ الرّوح نغمًا مجنّحًا في الوجود، فحكمْنا على الحياةِ والروح، ولم يقدرْ أحدٌ غيرُنا على معرفة مقاييسِ السنين، وموازينِ الأحلام السديميّةِ في الأعوام، حتى جاء العصرُ السابعُ فزففْنا في مدّ ظهيرته البحرَ عروسًا للشمس.

ومِن مضجعِ هذا الزواجِ المقدّسِ أخرجنا الإنسانَ، الذي على رغم ضَعفهِ وسُقمِه، ما برحَ يحملُ شارةَ والديْه.

وبواسطة الإنسانِ، الذي يمشي على الأرض وعيناه في النجوم، قد وجدْنا طرقًا نافذةً إلى أبعد الأصقاعِ النائيةِ في الأرض، ومن الإنسان -وهو القصبةُ الوضيعةُ الناميةُ على المياه المظلمةِ- قد صنعْنا مزمارًا نسكُبُ من قلبه الفارغ صوتَنا إلى العالم الصامتِ في جميع أرجائِه. ومن الشمال الذي لا شمسَ فيه، إلى رمالِ الجنوبِ المحترقةِ بالشمس، ومِن أرض عرائسِ النيلِ حيثُ تولدُ الأيامْ، إلى جزائر

الأخطارِ حيثُ تُذبحُ الأيامُ...

ترى الإنسانَ الضعيفَ القلبِ يتشجعُ بغايتنا...

فيغامرُ بالقيثارة والسيفِ.

فهو يذيعُ إرادتَنا، ويعلنُ سيادَتنا،

والمجاري التي يطؤُها بأقدامِ محبّتهِ هي أنهار سائرة إلى بحرِ رغباتِنا.

فنحنُ —جالسين إلى أعالينا— نحلمُ أحلامَنا في نوم الإنسان.

إننا نحثّ أيامَه لتفارقَ وادي الشفقِ البعيدِ، وتنشدَ كمالَها على التِّلال.

وأيدينا تسيِّر العواصفَ التي تجرفُ العالمَ،

وتحملُ الإنسانَ من السلامةِ العقيمةِ إلى الجهادِ المثمرِ،

ومن ثمتَ إلى الانتصار.

وفي أعيننا بصيرةٌ نيِّرة تحوّل نفسَ الإنسانِ إلى لهيبٍ،

وتقوُده إلى وحدة رفيعةٍ ونبوّة ثائرة،

ومن ثمتَ إلى الصَّلْب.

فقد وُلد الإنسانُ للعبودية،

وبالعبوديةِ شرفُه ومكافأتُه.

بالإنسانِ نطلبُ علامةً لما بِنا،

وبحياتهِ ننشدُ كمالَ ذواتِنا.

فإذا أخرسَ ترابُ الأرضِ قلبَ الإنسانِ، فأيّ قلبٍ يستطيعُ أن يرجّعَ صدى صوْتِنا؟

وإذا عَميتْ عيونُ الإنسانِ بظلمةِ الليل، فمَن يستطيعُ أن يرى لمعانَ مجدِنا؟

فماذا يجبُ أنْ نفعلَ بالإنسانِ وهو ابن قلبنا الأول، وهو صورتُنا ومثالُنا؟

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيّها الأخوانِ القديرانِ:

إن قدمَي الراقصةِ الحسناءِ قد سكرتا بخمرةِ الإنشادِ،

فأثارتا دقائقَ الهواءِ المرتعشة،

وهي كالحمامةِ تحلّق مرتفعةً بجناحيْها.

الإله الأول:

القُبّرة تُنادي القبرةَ،

ولكنّ النَّسرَ يحومُ فوقَها،

وهي لا تتوقفُ لتصغى إلى الإنشاد.

أنت تريدُ أن تعلن محبّة الذّات متكلمةً بعبادةِ الإنسانِ، وراضيةً بعبوديةِ الإنسانِ.

ولكنّ محبةَ ذاتي لا حدَّ لها ولا قِياسَ.

فأنا أريدُ أن أسموَ على ما يموتُ مِنيّ في الأرض،

وأتخذَ لي عرشًا في السَموات.

فأُمنطقَ الفضاءَ بذراعي، وأحيطَ بالأفلاكِ.

وأريدُ أن أتخذَ من المجرّة قوسًا،

ومن المذنباتِ سهامًا.

وباللا نهايةِ أريدُ أن أحكمَ اللا نهاية.

أما أنت فلا تريدُ أنْ تفعلَ هذا ولو كانَ في منالك.

فنسبةُ الإنسانِ إلى الإنسان،

هي كنسبةِ الآلهةِ إلى الآلهةِ.

وأنتَ تريدُ أن أتحمّلَ إلى قلبي التّعب،

ذكرى الأدوارِ المنقضيةِ في الضّباب.

وعيني تعقبتا صورتهما في المياه الهاجعةِ،

ولكنّ عروسَ أمسي قضْت نحْبَها في أثناءِ ولادتها.

فالصمتُ فقط يزورُ رحِمَها،

والرمالُ التي تقذفها الرياح ترضع ثدييها.

فيم أُمسي، أيها الأمسُ المائتُ، يا والدَ ألوهيّتِي المقيدةِ؟

أيّ إلهٍ عظيم قبضَ عليك في طيرانك،

وأرغمَك على الولادةِ في قفص؟

وأيّةُ شمسٍ جبارةٍ بعثْت حرارتَها في بطنِك لتَلِدَني؟

إنني لا أباركُك، ولكنني لا ألعنُك.

فكما أنّك أثقلْتَ كاهِلي بأحمالِ الحياةِ.

هكذا أثقلتُ أنا كاهلَ الإنسانِ.

بيْدَ أنني كنتُ أقلَّ قساوة مِنّك.

فأنا -الخالدَ- قد جعلتُ الإنسانَ ظِلاً زائلاً،

أما أنت -المائتَ- فقد خلقتني خالدًا.

فيا أمسي، أيها الأمسُ المائتُ،

هل تعودُ مع الغدِ البعيدِ،

فأقودَكَ إلى المحاكمة؟

وهل تستيقظُ مع الفجرِ الثاني للحياةِ،

فأمحوَ ذاكرتكَ العالقةَ بالأرضِ من الأرضِ؟

أود لو أنك تقومُ مع جميع الأمواتِ القدماءِ،

حتى تختنقَ الأرضُ بأثمارها المريرة،

وتنتن جميعُ البحارِ بدماءِ المذبوحينَ فيها،

ويستنزفَ الويل فوق الويلِ كلّ ما في الأرضِ مِن الخصب الذاهبِ عبثًا.

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوانِ القدّيسانِ،

قد سمعتْ فتاتُنا الأنشودةَ الساحرةَ،

وهي تفتشُ الآن عن المرنّم.

وهي كالخشف، في دهشة مسرتِها،

ترقصُ فوق الصخورِ والجداولِ.

فتديرها في جميع الجهاتِ...

ما أجملَ الغبطةَ التي ترافقُ المطالبَ المائتة!

والعينَ التي تفتحها الغايةُ نصفَ المولودة!

ما أحلى الابتسامةَ المرتجفةَ لما ستتمتعُ بهِ من الغبطةِ الموعودِ بها!

أيّة زهرةٍ تساقطتْ مِن السماء،

أيّ لهيبٍ ارتفعَ من الجحيم،

فحملَ قلبَ الصمْتِ إلى هذا الفرحِ والخوفِ المقطَّعِ الأنفاسِ؟

أي حُلم حلمناه على الأعالي،

أي فَكْر بعثناه في الرّيح،

فأيقظ غفْلةَ الوادي،

وفتحَ عينيِ اللَّيل؟

الإله الثاني:

إنك قد أعطيْتَ النولَ المقدسَ.

وأعطيتَ الفنّ لحياكةِ الثيابِ.

فالنولُ والفنُّ سيكونان لَكَ إلى الأبد،

وسيكونُ لك معهما الخيطُ الأسودُ والنور،

ولك أيضًا الأرجوانُ والذهبُ؟

وأنتَ مع كلّ هذا تحوكُ من نفسِك ثوبًا.

قد نسجتْ يداكَ نفسَ الإنسانِ من الهواء الحيِّ والنارِ،

وأنت تريدْ الآنَ أن تقطعَ الخيطَ،

وتُطلقَ أصابعَك الشعريةَ في الأبديّةِ الخاملةِ.

الإله الأول:

نَعم، نَعم، إنني سأطلِقُ في الأبديّة التي لم تُسبكْ في قوالبها بعدُ.

وفي الحقولِ التي لم تطأْها قدمٌ سأطلقُ قدميّ!

فأيةُ مَسرَّةٍ في سماع الأناشيدِ التي طالما سمعَها غيري، التي تلتقطُ ذاكرةُ الأذنِ أنغامها قبلَ أن تُسلمَها النفسُ إلى أمواجِ الهواءِ؟

إنّ قلبي يحِنّ إلى ما يستطيعُ أن يتصوَّرَه،

وأنا لنْ أرسلَ روحي إلاَّ إلى عالمٍ غيرِ المجهولِ الذي لا تقطنُ فيه الذاكرةُ.

بِربِّك، ولا تجرّبْني بمجدٍ فارغ،

ولا تطالبْ لي تعزيةً بأحلامِك أو أحلامي،

لأن كلَّ ما فيّ، وكلَّ ما في الأرض،

وكلَّ ما سيكونُ في الوجودِ، لا يقدِرُ أن يستهوىَ نفسي.

فيا نفْسي،

إنّ وجهَك صامتٌ،

وأشباح الليلِ نائمةٌ في عينيك.

ولكنّ صمتَك راعبٌ.

وأنتِ راعبةٌ.

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوان الرَّصينان،

إنّ الفتاةَ قد وجدتِ المرنّم.

فهي تنظرُ وجهَه المحبوبَ.

وهي كالنَّمِرِ تتخطّر بخطواتٍ ساحرةٍ.

بين الدوالي والأسيجةِ المتوّجةِ.

وهو ينظرُ إليها الآن في وسطِ أناشيدِ محبّتهِ.

أوّاه يا أخويّ، أيها الأخوان الغافلان،

هل هنالك إلهٌ آخرَ وقد حاكَ من آلامِه هذا النسيجَ القرمزيَّ والأبيضَ؟

أيّ نجمٍ جامحٍ قد أفلتَ هاربًا؟

ومَن يفصلُ الليلَ عن النهار بسرّه؟

ومَن يضعُ يَده على عالمنا؟

الإله الأول:

يا نفسي، يا نفسي،

أيتها الدائرةُ المحترقةُ التي تمنطقني بلهيبِها.

كيف أستطيعُ أن أقودَ سيَرلكِ؟

وإلى أيّ فضاءٍ أديرُ شوقَك؟

يا نفسي التي لا رفيقَ لها،

إنّك في مجاعتك تصطادين ذاتَكِ.

وبدموعِك تريدين أن تبردي عطشَك.

لأنّ الليلَ لا يجمعُ نداهُ في أقداحِك.

والنهارَ لا يحملُ إليكِ أثمارَه.

يا نفسي، يا نفسي،

أنت تحملين سفينتَك إلى الشاطئ وهي مثقلةٌ بأحمالِ الراغبات.

فمن أينَ تأتي الرياحُ لتملأَ شراعَك؟

وأي مَدٍّ فياضٍ يقدِرُ أن يحرِّر دفّتك؟

إنّ مرساتَك حاضرةٌ، وجناحيك على أهبةِ الطيران،

ولكنّ السماءَ صامتةٌ فوقَك،

والبحرُ الهادئُ يهزأُ بسكونك.

فأيّ رجاء ثمّت لي ولَكِ؟

وأي تقّلبٍ في العوالم، أو تبدّلٍ في غاياتِ السماءِ سيطلبُك؟

هل تحملُ رحِمَ عذراءِ اللا نهايةِ زرعَ مُنقذِك.

ذلك الذي هو أقدرُ من أحلامك،

وستنقذُك يدُه من عبوديتك؟

الإله الثاني:

احبسْ صراخَك اللجوجَ،

وأنفاسَ قلبِك الملتهبِ،

لأنّ أذنَ اللا نهايةِ صمّاءُ، وغافلةٌ هي عينُ السماء.

فنحن كلّ ما وراءِ العالم وكلّ ما فوقه،

وبيننا وبينَ الأبديةِ غيرِ المحدودةِ لا يوجد شيءٍ غير أهوائِنا التي لم تُشكَّل، وغاياتُها التي لم تكتمِل.

أنتِ تستهوين غيرَ المعروفِ،

وغيرُ المعروفِ، المرتدي بالضبابِ المتحرك،

إنما يقطُنُ في أعماقِ نفسِك.

نَعم، في أعماقِ نفسِك يضطجعُ منقِذُك نائمًا،

وهو يرى في نومِه ما لا تراهُ عيناك المستيقظتان.

هذا هو سرُّ كِياننا.

فهل تُعرِضُ عن جمْع حصادِك.

لتُلقي بذارَك بعجلةٍ في أثلام أحلامِك؟

وعلامَ تبسطُ سحبَك في الحقول الخربةِ.

في حين أنّ قطيعَك يفتّشُ عنك،

وأنت عبثًا تجمعُ في خيالك؟

فتأنّ. وأنْعِمْ نظرَك في العالم.

انظرْ إلى أولادِ محبّتك غيرِ المفطومين.

إنّ الأرضَ هي مسكنُك، والأرضَ هي عرشُك.

وفوقَ أرفعِ آمالِ الإنسانِ تقبضُ يدُك على قسمته،

أنت لا تُريدُ أن تتركَه،

وهو المجاهدُ أن يصلَ إليكَ بمسراته وآلامه.

وأنت لا تحوّلُ عينيك عن الحاجةِ التي في عينيه.

الإله الأول:

هل يضمُّ الفجرُ قلبَ الليلِ إلى صدره؟

أمْ هل يعبأُ البحرُ بأجسام موتاهُ؟

كالفجرِ تنهضُ نفسي في أعماقِي،

عاريةً غيرَ متحيّرة.

وكالبحرِ الذي لا يستريحُ،

يطرحُ قلبي عنهُ النفايةَ الزائرةَ من الأرضِ والإنسانِ.

إنني لم أعلق بكل ما يعلق بي،

ولكنني أريدُ أن أسموَ إلى ذلك المتسامي فوقَ ما تصلُ إليه قُوَّتي.

الإله الثالث:

يا أخويَّ، تأملاَ أيها الأخوان،

إن روحيْنِ سائرتيْن إلى النجومِ قد اجتمعتَا في الجو للحساب.

وهما تنظُران الواحدةَ إلى الأخرى بصمتٍ وسكون.

إن المرنِّم قد انقطعَ عن الغِناء.

ولكنّ حلقَه الذي حرقتهُ الشمسُ يرتعشُ بالأناشيدِ،

ورفيقتُه الراقصةُ قد سكنَ الرقصُ في أعضائها،

بيْدَ أنّه لم ينمْ.

يا أخويّ، أيها الأخوان الغربيان!

إن الليلَ يشتدّ ادلهامًا،

والبدرَ يزدادُ إشراقًا، وبين الغابةِ والبحرِ،

تصرخُ المحبّة بأعلى الصّوتِ تدعوكُما وتدعوني إلى قلبِها.

الإله الثاني:

يا لَتفَاهةِ الكِيان، والنهوض والاحتراقِ أمامَ الشمسِ الملتهبةِ، والحياةِ المراقبةِ للّيالي والأحياء، كما تراقبُنا عينُ الجوزاء!

يا لَحَقارةِ مجابهةِ الرياحِ الأربعِ برأسٍ مكلّلٍ رفيع،

وشقاءَ أسقامِ الناسِ بأنفاسٍ لا مَدَّ في بحرِها!

إن الخيّامَ جالسٌ يخبطُ خبْطَ عشْواء أمام نوْله،

والخزّاف يُدير دُولابَه بعدم اكتراثٍ،

أما نحن –الذين لا ينامون– ويعرفُون كلَّ شيءٍ،

فقد أُعْتِقْنا من ظُلمةِ الظنِّ والتخمين.

فنحن لا نتردّد ولا نُنْعِم الفكرَ والنظر.

لأننا قد سموْنا رفعةً على جميع الأسئلةِ القلقةِ.

فلْنعشْ مطمئنين. ولْنطلقْ طيورَ أحلامِنا من أقفاصِها.

وكالأنهار فلنسكبْ في البحر،

من غيرِ أن تديرنا حافاتُ الصخور.

فإذا بلغْنا قلبَ اللُّجةِ، وابتلعتْنا أمواجُها.

انقطْعنا عن المجادَلةِ والتأمُّلِ في مصيرِ الغدِ، إلى الأبدِ.

الإله الأول:

أُفٍّ من أَلَمَ هذا التكهُّنِ الذي لا ينقطعُ،

وهذا السهرُ السائرُ بالنهار إلى الشفقِ،

والذاهبُ بالليلِ إلى الفجرِ!

أفٍّ من هذا المدِّ الذي يحملُنا إلى الذكرى الدّائمة، والنسيانِ الدائم،

وهذا الزرعُ المتواصلُ لبذارِ الأقدارِ التي لا تُحصدُ منها غيرُ الآمال،

وهذا الرّفعُ غير المتغيّر للذّاتِ من التّراب إلى الضّباب،

لتحنَّ إلى التراب. ثم تسقطَ بحنينها إلى التراب.

ثم لا يلبثُ أن يتضاعفَ حنينُها فتنهضَ ناشدةَ الضبابِ ثانية!

أفّ من هذا القياسِ الذي بغيرِ أوانه للزّمان الذي لا يتغيّر!

وهل تحتاجُ نفسي إلى أن تصيرَ بحرًا تُزعجُ مجاريه بعضُها بعضًا إلى الأبدِ.

أو جوًا تتحولُ فيه الرياحُ المتحاربةُ إلى زوبعةٍ؟

لو كنتُ رجلاً، لو كنتُ عبيرًا أعمى،

لكان في طوْقي الصبرُ على كل هذا!

أو لو كنتُ الإلهَ الأعلَى، الذي يملأ فراغَ الإنسانِ والآلهةِ، لكنت أكتفي بذاتي.

ولكنْ أنا وأنتَ لسنا بشرًا.

ولا نحنُ بالعلى الذي فوقَنا.

لو كنا أشفاقًا (جمع شفق) لا تنقطعُ عن الظهورِ والزوالِ من أفقٍ إلى أفق.

وآلهة، نُمسك بالعَالم ويُمسك العَالم بنَا.

وقد قضى علينا أنْ ننفخَ بالأبواق.

ولكنّ الروحَ النافحةَ والموسيقى الخارجةَ من أبواقنا ليستْ مِنا بل تأتي مِن فوق.

لذلك تراني أرغبُ في الثورةِ.

أريدُ أن أستنزفَ ما بي حتى أصيرَ فارغًا.

أريدُ أن أبتعدَ عن بصيرتِك.

أريد أن أختفيَ من ذاكرةِ هذا الشابِ الصامتِ، الذي هو أخونا

الأصغرُ، الجالس قريبًا منا يتأمل في ذلك الوادي.

ومع أن شفتيه تتحركان، فهو لا ينطقُ بكلمِة.

الإله الثالث:

إنني أتكلمُ أيها الأخوانِ الغافلان.

إنني أتكلمُ بالحقيقة.

ولكنكما لا تسمعان غيرَ حديثِكما.

أطلبُ إليكما أن تنظْرا مجْدَكما ومجْدي.

بيْد أنكما تتحولان، وتُطبِقان أجفانكما، وتهزّان عرشيْكما.

فيا أيّها الحاكمان الراغبان في السّيادةِ على العالمِ العُلويِّ والعالمِ السُّفْليّ.

أيها الإلهان الأنانيان اللذان لا ينقطعُ أمسُهما عن جسد غده.

أيها التّعبانِ من أثقالِ ذاتِكما، المهدّئانِ حِدّة غضبِكما بالكلام، والضاربان محاجرَنا بالصواعق!

ليست مخاصمتُكما سوى صوتِ القيثارةِ القديمة، التي نسيتْ

أصابعُ القدِيرِ نصفَ الضرْب على أوتارها. ذلك الذي الجوْزاء عُـوده والثريا صنوجه، وهو حتى في هذه الساعةِ التـي تتمـتمان وتدمـدمان فيها يضرب على عوده وصنوجه،

فألتمس منكما أنْ تُصغيا إلى أنشودته.

انظرا... رجلاً وامرأة،

لهيبًا مع لهيب،

يذوبان وجْدًا وهُيامًا.

جذورٌ تَرضعُ ثدْي الأرضِ الأرجواني،

وزهورٌ من نار على صدرِ السماءِ.

ونحنُ الثّدْي الأرجوانيّ،

ونحن السماء الباقية.

إن نفسَنا، التي هي نفسُ الحياةِ. نفسُكما ونفسي،

إنما تقيم الليلة في حلْق ملتهب.

مجللّة جسمَ فتاةٍ طاهرةٍ بثوبٍ من الأمواجِ الثائرةِ.

إن صوجانكما لنْ يغيّرَ هذه القسمةَ المعدةَ لنا.

وهمومَكما هي الطموحُ بعينْه.

لأن هذا جميعُه سيمّحي من الوجود في هوى الرجلِ والمرأةِ.

الإله الثاني:

وما شأنُ هذه المحبّةِ بين الرجلِ والمرأة؟

تأمل كيفَ ترقصُ الريحُ الشرقيّة الرشيقةُ،

وتنهضُ الريحُ الغربية مترنمةً بأنشودتها.

انظر إلى محجّتنا المقدسةِ جالسةً على عرشِها الآن،

باستسلام روحٍ يغنّي إلى جسدٍ يرقص.

الإله الأول:

إنني لن أحوّل عينيّ إلى وهْم الأرض.

ولن أنظرَ إلى أولادها في الألمِ البطيءِ والذي تسمّيه محَبَة.

وما هي المحبة؟

سوى طبلٍ مقنّعٍ يقودُ مركبًا طويلاً من الرّيبِ اللذيذ، إلى شكل آخرَ من الألم البطيءِ.

إنني لا أريدُ أنْ أنظرَ إلى هذا الوهْم.

وأيّ شيءٍ تراه هناك،

إلا رجلاً وامرأةٍ في الغابةِ التي نَمَت لتصطادَهما في فِخاخِها، وتعلّمُهما إنكارَ الذات. وولادةُ المخلوقاتِ لغدِنا الذي لم يولدْ بعدُ؟

الإله الثالث:

أفٍّ من الألم الذي تجلِبه المعرفة!

والقناع المظلم الذي وضعه تفحُّصنا وتساؤلنا على وجهِ العالم، والاستنهاد الذي نوجّهه في كلّ ساعة للصبر البشريِّ!

فنحن نضعُ تحتَ حجرٍ شكلاً من الشّمع،

ثم نقولُ: إنه شكلٌ من الطين،

فلْيجدْ في الطين آخرتَه.

ونمسك بأيدينا لهيبًا أبيض،

ثم نقولُ في قلوبنا:

إنه عبيرُ ذواتِنا يرجعُ إلينا،

ونسمةُ نسمتِنا الفالتةِ مِنا،

وبعد ذلك نعمَدُ مفتّشين في أيدينا وشِفاهِنا عن المزيد من العبير.

فيا إخوتي -آلهةَ الأرضِ-

إننا وإنْ كنا في أعلى الجبل،

فنحن ما زلنا نسيرُ إلى الأرض،

بواسطة الإنسانِ الراغبِ في الساعات الذهبيةِ التي في نصيبِ أخيه الإنسان.

فهل تسلب حكمتنا الجمال من عينيه؟

أم هل تخضعُ مقاييسنا أهواءه فتحملَنا إلى السّكون، أو تقودَنا إلى مستوى أهوائنا؟

ماذا تقدرُ أنْ تصنعَ جيوشُ أفكارِكم،

حيثُ تجتمعُ المحبةُ بجيوشِها الجرّارة؟

ألا أنّ الذين غلبتْهم المحبةُ،

وسارتْ بمواكبِها فوقَ أجسادِهم من البحرِ إلى الجَبل،

ومن الجبل إلى البحر،

يقفون الآن، وفي كلّ أوان، متعانقينَ بحياءٍ ووقار.

باجتماع أوراقِ زهورِ محبّتِهم يتنشّقون عبيرَ الحياةِ المقدسِ،

وباتحادِ نفوسِهم يجدون نفسَ الحياة،

وعلى أجفانهم ترتسمُ صلاةٌ مرتفعةٌ إلينا.

المحبةُ هي ليلٌ منحنٍ بوقارٍ تحتَ خيْمةٍ مقدسةٍ،

وسماءٌ قد تحولتْ إلى غابة،

بل هي جميعُ النجوم قد تحولتْ إلى حباحبَ.

نحن بالحقيقةِ كلّ ما وراءَ العالم وكلّ ما فوقه.

ولكنَّ المحبةَ أبعدُ من أنْ تصلَ إليها أسئلتُنا.

وأسمى من أنْ تبلغَ إليها أنشودتُنا.

الإله الثاني:

أتطلبُ دائرةً بعيدةً،

ولا تهتمّ بهذا الكوكبِ الذي غرستَ فيه عزيمتَك؟

ليس في الفضاء مرْكزٌ إلا حيثُ نزُفَّ النفسَ إلى النفس.

ويكون الجمالُ شاهدًا وكاهنًا.

فتأملْ وانظرِ الجمالَ مبعثرًا حولَ أقدامنا.

تأمّل جيدًا كيف يملأ الجمالُ أيدينا لينزلَ العارُ بشفاهنا.

إنّ الأبعدَ هو الأقربُ.

وحيثُ يكونُ الجمالُ يكونُ كلُّ شيءٍ.

أوّاه أيها الأخُ الحالمُ الرفيعُ!

ارجعْ إلينا من عهدِ أرضِ الكآبةِ القاتمةِ.

حرِّر قدميك من اللا مكان واللا زمان.

واقطنْ معنا في هذه الطمأنينةِ الآمنةِ،

التي ابْتنتْها يداك وأيدينا حَجرًا فوق حَجر.

انزْع عنك ثوبَ خفقان قلبِك،

وكن رفيقًا لنا في السيادة على هذه الأرضِ الفتيةِ، الحارةِ بجلالِ خضرتِها.

الإله الأول:

أيها المذبحُ الخالدُ!

هل تريدُ بالحقيقةِ إلهًا لضحيّتِك في هذه الليلةِ؟

إذن فأنا قادمٌ، وبقدومي أقرّبُ محبّتي وألمي.

هنالك تقف الراقصْة، التي نحتتْ من شوقِنا القديمِ.

والمرنّمُ يصيحُ بأناشيدي في أمواج الريح.

وفي ذلك الرقصِ، وفي ذلك الإنشادِ.

يموتُ إلهٌ قديرٌ في أعماقي.

إنّ إلهَ قلبي القاطنَ وراءَ ضلوعِ بشرتي ينادي إليه قلبيَ المقيمَ في الهواءِ.

والهاويـةَ البـشريةَ التـي طالمـا عطَّلـت علـيَّ راحتـي تـصرخُ إلى الألوهية.

والجمالَ الذي نشدناه منذْ البَدْءِ يصرخُ في الألوهية.

وفي إصغائي قد قِسْتُ هذا الصراخَ.

وها أنا ذا أُلقي سلاحي.

فالجمالُ طريقٌ يؤدي إلى الذات المقتولةِ بيَدِ ذاتِها.

فاضربْ أوتارَك.

إنني مستعدّ للسير على الطريق.

فهي تمتدُّ إلى فجر آخرَ.

الإله الثالث:

قد انتصرتِ المحبةُ!

سواء أكانت المحبةُ بياضًا ناصعًا أو خُضرةً زاهيةً بجانبِ بحيرةٍ، أو كانت جلالاً وفخارًا في القِبابِ الرفيعةِ، أو كانت في بُستانٍ حافلٍ بالناسِ، أو في صحراءَ لم تطأْها قدمُ الإنسان.

فالمحبةُ هي ربّنا ومعلّمنا في كل حال.

فهي ليست بالشّهوة الزائدةِ في الجسد.

ولا هي فُتات الرغبةِ المتساقطِ من مُصارعة الرغبةِ للذّات،

كلاّ، ولا هي بالجسد الحاملِ سلاحَه على الرّوح،

لأن المحبةَ لا تعرفُ الثورةَ.

ولكنها تهجُرُ طريقَ الأقدارِ القديمةِ لتسيرَ إلى الغايةِ المقدسةِ،

لترقصَ وتترنّم بأناشيدِ أسرارِها في آذانِ الأبدية.

المحبةُ شبابٌ قد تحطمتْ قيودُه،

ورجولةٌ قد تحرّرت مِن عفاء الأرض،

وأنوثةٌ حارةٌ بلهيبٍ مقدسٍ، مشرقةٌ بنورِ سماءٍ أبهى مِن سمائنا.

المحبةُ ضحكٌ بعيدٌ في أعماق الرّوح.

المحبةُ حملة قديرة تسيرُ بك إلى يقظتك.

المحبةُ فجرٌ جديد على الأرض،

ويومٌ لم تصلْ إليه لا عينُك ولا عيني،

ولكن المحبةَ قد وصلتْ على قُدس أقداسِه بلقبِها الأعظمِ.

يا أخويّ، يا أخويّ،

إنّ العروسَ قادمةٌ من قلبِ الفَجْر،

لتلقى عريسَها القادمَ من الغروب.

وسيكونُ عرسٌ في الوادي،

ويومٌ أعظمُ من أن تدوّنَ حوادثُه.

الإله الثاني:

هكذا كان منذ أطلقَ الصباحُ الأولُ السهولَ إلى التلالِ والأودية،

وهكذا سيكونُ إلى بعدَ المساءِ الأخير.

إن جذورَنا قد أنبَتتِ الأغصانَ الراقصةَ في الوادي،

ونحن أزهارُ عبيرِ الأنشودةِ المرتفعةِ إلى الأعالي.

فالخلدُ والمائتُ نهران توأمان يناديان البحرَ بغير انقطاع.

وليس بينَ النداءِ والنداءِ فراغٌ قط، إلاَّ في الأذن.

فالزمانُ يزيدُ إصغاءنا ثقةً،

ويضيفُ إلى رغباته.

ولا يُخرس الصوتَ في المائت غيرِ المرتاب.

أما نحن فقد تساميْنا على الشكوك..

فالإنسانُ هو ابن قلبِنا الأصغرِ.

الإنسانُ إله يرتفعُ إلى ألوهيتهِ ببطءٍ شديد،

وبيْن مسرته وألمِه ننامُ ونحلُمُ أحلامَنا.

الإله الأول:

دعِ المرنّم يترنم، والراقصةَ تحرِّك قدميها.

ودعني أطمئنُّ هُنيهة.

إن نفسي تريدُ أنْ تستريحَ الليلةَ.

فقد يغلِبُني النومُ.

وفي نومي أرى عالمًا أكثرَ نورًا من هذا العالم.

فتأتي مخلوقاتٌ أبهى من مخلوقاتِنا فتسترقُ طريقَها إلى فكري.

الإله الثالث:

إنني أنهضُ الآن فأجردُ نفسي من حدودِ الزمانِ والمكانِ.

وأرقصُ في ذلك الحقلِ الذي لم تطأْه قدما إنسانٍ.

وستتحركُ قدَما الراقصةِ مع قدميّ.

وسأترنمُ في ذلك الملأِ الأعلى.

وسيختلجُ صوتٌ بشريٌّ مع صورتي.

سنعبرُ إلى الشفقِ البعيد.

فقد نستيقظُ في فجر عالمٍ آخر.

ولكنّ المحبةَ باقيةٌ،

ولن تمّحى آثارُ أصابِعها.

إنّ الكورَ المقدسَ متأججٌ بالنار.

وكلّ شعلة تصعدُ منه هي شمسٌ محترقة.

فالأجدرُ بنا، والأحكمُ لمصلحتنا.

أنْ نفتّش عن زاويةٍ صغيرةٍ فننام في ألوهيّتنا الأرضيّةِ،

تاركين أمرَ قيادتِنا إلى اليومِ المقبلِ، إلى المحبّةِ البشريّةِ الضّعيفةِ.

***

الفهرس

1 رمل وزبد & الموسيقى
2 عرائس المروج
3 الأرواح المتمردة
4 الأجنحة المتكسرة
5 دمعة وابتسامة
6 المواكب & المجنون
7 العواصف
8 البدائع والطرائف
9 السابق
10 النبي
12 التائه
13 مختارات من رسائل جبران



٢٠ ش عبد المنعم رياض - من ش حس
زهراء مدينة نصر - القاهر
ت: ٠١٢٣٨٨٨٩٣٠ - ٣٣٣١٢٣٨
nail : almmarfa@yahoo.com
almmarfa@gmail.com

عبلين - الجليل - فلسطين
جوال: ٠٥٢٣٠٧٧٣٣٤ (٠٠٩٧٢)
٠٥٢٨٥٠٢٨٢٦ (٠٠٩٧٢)
فاكس: ٠٤٩٥٠٢٤٧٢ (٠٠٩٧٢)

